دروس فى المسيحية

نموذج من اللقاءات الفكرية بين الشرق والغرب

بقلم

الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم الفيومى

عميد الكلية

قال الله تعالى :

« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »[1] .

« صدق الله العظيم »

---

(١) سورة آل عمران الآية (٦٣) .

أولا : المسيحية فى الغرب

من الغايات السامية التى ينبغى أن يرمى إليها المفكرون : توحيد الجهود ليسموا بالحضارة إلى درجة أعلى ومنزلة أسمى يرفعون من قدرها الإنسانى حتى لا يتخيل شعب من الشعوب أنها ملك له فهى دائماً ثمرة الجهد الإنسانى على مـــدار التاريخ ، تختص ببلاد دون أخرى بل تشترك فى بنائها الإنسانية كلها .

إذا تأملنا التاريخ الإنسانى رأينا أن بين الحضارات حواراً فكرياً يقوم فى أساسه على دعائم التفاهم المشترك ويرسى قاعدة من العلائق والروابط ، ومهما اختلفت الثقافات بين الشرق والغرب فإن هناك سمات أساسية تحملها الروح الإنسانية تتميز بصفات الخلود التاريخى مهما أثرت عوامل شتى تختلف باختلاف الزمان والمكان .

وإذا تأملنا تاريخ « الحياة الدينية » رأينا أنها من أقوى الأمثلة على أنها نموذج للحوار بين الحضارات فى كل الأدوار التاريخية الإنسانية أدت إلى التقارب الدائم المتواصل بين صيغ الحضارات جمعها وتوحيد طابع عام للثقافات الحضارية فى الحياة الدينية

ولا نزال من أبرز الشروط التاريخية لكل أدوار صيغ التوحيد الفكرى بين العناصر الشرقية والعناصر الغربية ، إذ أثرت الأديان والعقائد المختصة بهذه البلاد الشرقية على بعض الظواهر الروحية فى الغرب ، كذلك أثرت صيغ العقل المنطقى الغربى وقضايا فلسفته على الشرق وتراثه بذلك أسهمت الشعوب بجهود مشتركة فى تسيير الحضارة الإنسانية فى طريق التقدم والانتعاش ،

ولا شك - إذا ما اصطنعنا الحوار بين الفكر الإنسانى والدينى - أننا نجد وجوه الاتفاق أكثر مما يبدو لنا من وجوه الاختلاف الذى وهو فى حقيقة الأمر نتاج من تصادم الميول وتغالب الأهواء .

وإذا كان من المسموح به من خلال طرق البحث أن يتكلم بعضنا عن حضارة آرية أو سامية - إلى غير ذلك مما يثير العصبية أو يشير إلى تخصص ثقافى - فإن الجو العام لحضارتنا المعاصرة بما انطوت عليه من تقدم لم يخطر من قبل على ذهن بشر لا يسمح بتلك الدعوات الإقليمية أو العرقية إلا من قبيل التخصص الثقافى لنحافظ ونؤكد على إنسانيتها المتزاوجة بالدينية وإذا ماتعاونا بلغة الحوار الفكرى جعلناها أكثر إنسانية .

وأحب أن أقدم مثالا شاهداً نتأمل منه كيفية التعاون الفكرى بين الشرق والغرب متخذين من الفلسفة والدين ذلك النموذج الثابت رغم تقلبات التاريخ إذ ليست الحضارة المعاصرة إلا نتيجة عناصر شرقية وغربية اختلف نفوذها المتبادل باختلاف الأماكن والأزمنة وباختلاف الظروف ولاسبيل إلى فهم هذا التركيب العجيب وأدواره وصيغه إلا إذا تأمل أصحاب التاريخ كل وجه من وجوه المسألة واتجهوا بأبحاثهم إلى تقدير كل عنصر من العناصر التى اشتركت فى إنتاج هذه الظواهر التاريخية .

ويرى أصحاب التاريخ : أن فى الحضارة مايرجع فضله إلى تأثير الشرق وفيها مايرجع فضله إلى تأثير الغرب .

لقد استقرت فى الشرق حضارات قديمة فى بلاد الصين والهند والفرس ومصر وكانت معظم بلاد الشرق الأوسط مهداً للوحى الإلهى ورسله .

وتراثه تميز بأنه دين الحكمة ويكاد ينعقد الرأى على أن الشرق القديم

قد سبق إلى ابتداع حضارات مزدهرة تقوم على علوم عملية ناضجة ودراسات دينية قيمة ، وقد اخترع قدماء المصريين الرياضة والهندسة والكيمياء وعلم الطب ، وكذلك الكلدانيون والبابليون الذين كانوا أول من درس أجرام السماء وأفلاكها . وسبق الشرق الغرب كذلك في تفكيره الديني ، وقد خلف قدماء الشرقيين آراء ونظريات عقلية ودينية في الألوهية والبعث والخير والشر والمبدأ والمصير ، وكانت الصفة العامة للتراث الشرقي ، الروحانية المنطلقة ، نحو المطلق (الله) على أساس من الدين سواء كان هذا الانطلاق من دين سماوي ـ وهو الأصل ـ أو من دين وضعي .

ومن غير أن يعيب الغربي خصائص الفكر الشرقي من أنه انطلق من عقلية بسيطة تميل إلى الأشياء السهلة ولا تميل إلى التعقيد وهو يخلو حسب نظره من الخصائص المنطقية والعقلية المنظمة من غير أن يقف وقفة المتنابذ ، فإن الفكر الشرقي ـ وهو بخصائصه تلك ـ لعب دوراً حضاريا في بناء الحضارات الشرقية والغربية وفرض قوة تراثه الروحي على الغرب منذ الرومان وسلطتهم .

ذلك أن من أبرز صور الصراع بين الشرق والغرب ما كان بين الدولة الرومانية ذات الديانة الوثنية وبين المسيحية ذات الدين السماوي ، بين التراث الأوربي المتعالي والتراث الشرقي المغلوب ، بين مواطن من الدرجة الثانية ومواطن له حق الرياسة والحكم ، وتلك حلقة من أولى حلقات الصراع بينهما .

وفي نفس الوقت هي بداية الصراع بين الوثنية الإغريقية وبين الإيمان الديني أو بين قضيتين : قضية غربية ، وقضية شرقية .

نحن نعلم أن الدولة الرومانية كانت دولة كبرى وأن المسيحية ليست دولة

وإنما هي دين جماعة مضطهدة وأول من وقع عليه الاضطهاد الروماني المسيح ذاته وخيل إليها أنها بقتلها المسيح - حسبما خيل إليها - قضوا على المسيحية من حيث هي دين لانود أن نقف طويلا أمام سير العلاقة التي شاء التاريخ أن يتكلم عنها ويفرط فيها معرضين عن ذلك إلى نقطة أخرى ، وهي التي تهم المؤرخ الفكرى حيث يريد أن يقف على حقيقة التزاوج بين الدولة الرومانية والدين المسيحى مؤثراً سيره على هذا الخط ليرى شيئاً عجباً وقليلا مايحدث فى التاريخ وهو : كيف تتبنى دولة كبرى ذات سيادة سياسية واقتصادية واجتماعية رسالة أشخاص ضعاف فتحمل عنهم عبثها لتقوم بالدعوة إليها ، ثم فى النهاية يضع المؤرخ سؤاله وهو كيف ينتصر تراث شرقى لأمة مغلوبة على تراث غربى وهو لأمة غالبة لم تلبى حفظه ؟ .

هذا ما يهم المؤرخ الفكرى من هذا الحدث التاريخى ، ومن هنا تبدأ قصة العلاقة بين الغرب الرومانى والشرق المسيحى .

لكن السؤال الذى سوف نبدأ به بحثنا هو : إذا كانت المسيحية ديناً شرقيا فكيف انتقلت إلى الغرب ؟ .

ووجهة نظرنا فى طرح هذا السؤال هو أن نعطى قدراً من المعلومات التاريخية نعمق بها وجهة نظرنا - اقتضاها سير البحث إلى إبراز نتيجة ما أو مناقشة ما - من غير أن نتهم بازدراء العقل أومجانبة الحقيقة أو التعصب لإسلامنا - مثلا - لأننا مادمنا قد أخضعنا المسيحية أو حركات الإصلاح المسيحية لقواعد المنهج العلمى ، فبالضرورة سوف نقدم بين أيديكم الجو التاريخى الذى نشأت فيه المسيحية ثم اتخذت سبيلها إلى الغرب ! :

يذكرنا التاريخ بأن المسيحية دين سماوى ورسولها رسول من قبل الله وكتابها وحى مقدس ، فالمسيحية إذن ومن غير تشكك دين سماوى .

رأى التاريخ ذلك كتابنا المقدس ، القرآن الكريم ، إذن لاداعى لأن

نكثر من الأدلة على سماوية الدين المسيحى ، هذه القضية ليست مطروحة وإنما أردنا وفق منهجنا أن نبرز المعالم الرئيسية والأساسية للنظام المسيحى غير أننا نريد أن نشير إلى بعض المشاكل التى تعرضت لها الديانة المسيحية ورافقتها فى مسيرتها التاريخية .

وهى كما تبرز لنا نبدأ مع نبيها المرسل يسوع المسوح أو «عيسى المسيح» .

يبرز لنا أول مايبرز اضطهاد الرومان للمسيحية وكان عبء اضطهادهم على المسيحية شديداً من غير هوادة ، قاسياً من غير لين ، وذلك حين تعقب الرومان المسيح بالصلب وإن كان كما يذكرنا القرآن بأنهم ماقتلوه وماصلبوه .. ولكن هذا لا يعفى الرومان من أنهم اضطهدوا المسيح بل يشير إلى أنهم لا يمكن أن يلاحقوا إرادة الله حين برىء المسيح مما قالوا ... وحين رفعه الله إليه وحين أرادوا التمثيل به ، إذن إرادة الله فوق إرادة البشر وفوق التاريخ .

حادث الاضطهاد الذى بدأ عهده باضطهاد المسيح ذاته يعيننا على بعض نتائج ظهرت فى ثوبها العلمى على أنها ملاحظات ، منها : إذا كان الاضطهاد وقع على المسيح ذاته فمعنى ذلك أن مسيرة التاريخ فى المسيحية لم تكمل ، أى أنهم تعقبوا المسيح قبل أن يتم رسالته لأن حادث الاضطهاد يشير إلى معنى ذلك ، وهو أن المسيح لم يتمكن من أداء رسالته .

ما نلاحظه هو هنا ما قلناه سابقا : من أن إرادة الله فوق إرادة التاريخ ، غير أنه يشير إلى أنه سوف يكون هناك نبى يكمل حركة التاريخ الدينى فكان محمد ﷺ . هذه نتيجة وإن ظهرت فى شكل ملاحظات .

أما المغزى السياسى الذى سوف نقف عليـــه من حركة الاضطهاد الرومانى للمسيحية فهو شىء ذو أهمية ، لأننا سوف نتخذه معياراً لكل ما وقع على المسيحية من أثر الاضطهاد السياسى وهو : أن الدولة الرومانية

من مذهبها تقديس الامبراطور ، وذلك من صميم النظرية السياسية أى أن الامبراطور يحل محل الله ، فمعنى ذلك : أن الدعوة المسيحية سوف تنازع صميم النظرية السياسية للامبراطورية الرومانية ، لأنها تدعو إلى إله آخر غير الامبراطور .

من هنا لاحقتها - أى الامبراطورية الرومانية - لاحقتها وهى فى مهدها فوأدتها وأرادت بذلك حفظ نظامها السياسى وهو تأييد الامبراطور وحفظ النظام الدينى الخاص بها القائم على الوثنية ، فوثنيتها ونظامها السياسى دفعاها معاً إلى الدعوة المسيحية ولاحقتها فى كل مكان وأصبح التاريخ فى تقلباته يحمل معه اللاجىء الدينى واللاجىء السياسى . لكن بعد الذى قلناه هل كان يتوقع أحد مستقبلا للمسيحية على يد الدولة الرومانية ؟ .

اتجهت الدولة الرومانية إلى المسيحية كصيغة من صيغ الإصلاح لحفظ كيان الدولة ولاسيما جناحها الشرقى الذى بدأ يضطرب ، ولكنها تحفظت حفاظاً على تراثها الرومانى ببعض التحفظات التى تقتضيها حتى لا تجد مشقة فى تطبيقها للمسيحية .. وكانت هذه التحفظات تعنى بالدرجة الأولى الإبقاء على تراثها الرومانى ووضعه بجانب المسيحية حتى لا يقال : إن الدولة الرومانية هزمت ثقافيا وانتصر تراث الشرق عليها . كذلك من التحفظات التى وضعتها فى اعتبارها وهى تطبق المسيحية : المحافظة على جوهر الوثنية دون شكلها حتى لا يقال أيضا : إن الدولة الرومانية هزمت من حيث دينها أو من حيث عقائدها وانتصرت المسيحية عليها .

لهذه التحفظات التى وضعتها فى اعتبارها وهى تحاول التوفيق بينها وبين المسيحية ، شوهت المسيحية شكلا وموضوعا لأنها تريد المسيحية من وجهة نظر رومانية لا من وجهة نظر المسيح وحوارييه ، إذ كيف تكون إمبراطورية غربية كبرى تأخذ بالمسيحية وهى شرقية ديناً لها ؟ هل من المعقول بعد ذلك

أن تعلن الإمبراطورية وفاقها مع دين تعقبت نبيه بالقتل وأنبياء قبله فى الشرق ؟

فالمسيحية منذ كانت فى نظر الدولة الرومانية دين لفئة مضطهدة فى التاريخ لذلك أدخلت عليها التغييرات حتى أصبح ديناً للدولة الرومانية ، فمن هنا دخل مدرسة الإسكندرية وقام عليه القائمون من رواد الفكر الإغريقى فأدخلوا فيه الكثير من فلسفة الرومان وعقائد الوثنية ، ولما كانت الفلسفة منقسمة فى نفسها انقساما جوهريا أحدث تصدعا فى البنيان العقائدى فضلا عن أنها حلت فى جوهرها وثنية الفلسفة حين ألهت رسولها وهو بشر كما ألهت إحدى المدارس الإغريقية العقل الإنسانى كذلك من حيث الصفة العامة التى تحكم الدين المسيحى أنه دين غير شامل ، بمعنى أنه لا يحمل فى داخله نظاما كالدين الإسلامى ، وكل ما تطالعنا به الأناجيل المقدسة أنه دين سماوى ولكنه يحرص على جانب واحد هو الجانب العقدى والأخلاقى أما الجوانب الأخرى التى يحتاج إليها الإنسان فى نظامه ومعاشه ، فإننا نراه يكاد يكون خالياً منها تماما أى ليس فيها نظام سياسى أو اجتماعى . . كذلك من حيث الصفة العامة التى تحكم المسيحية أن كتابها المقدس دخله بعض التحريفات التى أشار إليها القرآن فيما بعد كما أكدت البحوث التاريخية المعاصرة ما أثاره القرآن عليها .

ولاشك أن مدرسة الاسكندرية أحدثت فى الصيغة المسيحية صيغاً فلسفية ظهرت آثارها فى انقسام المسيحية إلى عقائد متنافرة مما جعل بعض مؤرخى الأديان يتكلم عن مستقبل المسيحية بأن الواقع سوف يرفضها لا من حيث هى دين سماوى وإنما من حيث ما أحدثه فيها العقل البشرى وفلسفته من فساد وتضليل فضلا عن أنها نظام غير متكامل لمواجهة واقع الحياة الإنسانية فعجزت المسيحية أن تكافح طغيان التراث الرومانى وفلسفة الإغريق كما عجز الرومان مع المسيحية عن صد تيار الإسلام الهادر ، وفى ذلك

آية على عجز المسيحية من واقع تاريخها عن مقابلة الإسلام .

من هذه التغييرات التى أدخلتها الدولة الرومانية على المسيحية لإصلاحها بناء الكنيسة .

والكنيسة المسيحية تطور من الكنيس اليهودى غير أن الكنيسة المسيحية تميزت بالترف الفنى الرومانى والصور والتماثيل الذى يرمز بعضها إلى المسيح وإلى مريم وإلى الحواريين. ولاشك أن هذا الفن الرمزى الذى أسبغته على الكنيسة هو أثروثنى لمعتقدات الرومان الشعبية ، فالكنيسة بناء وفن لم يكن يعرفه المسيحى قبل وفاق الدولة الرومانية مع المسيحية ، والذى كان معروفا هو الصومعة القائمة هنا أو هناك متاخمة لكهف فى جبل أو قائمة فى وسط الصحراء تعلوها نزعة الحوارى المسيحى الزهدية .

أما الفن الزخرفى والحجر المرمرى والسقف المذهب كل ذلك كان أثراً رومانيا وأما الأثر الفلسفى على المسيحية فإننا نلاحظه أولا : فى انشقاقات المسيحية إلى فرق . . . وثانيا : فى ثالوثها المقدس . . . وثالثا : فى الصيغ والتغييرات الفلسفية ذات المظاهر الهلينى ..

فأما أولا : فإن المسيحية ظلت الوحدة العقائدية لها تحكمها وهى مضطهدة وتحميها من العسف السياسى الرومانى إلى أن اصطنعتها الدولة الرومانية لنفسها وأحدثت تغييرتها.. فانقسم المسيحيون على أنفسهم وعلى الصنيع الرومانى ، فمن كان ولاؤه للسياسة من رهبان المسيحية رضى عن الصيغة الرومانية عن المسيحية ، ومن كان ولاؤه لدينه أكبر أخذ المسيحية من أناجيلها دون مدرسة الاسكندرية وصيغها الفلسفية الجافة .

فالشقاق الذى وقع فى المسيحية كان انشقاقا فى صميم العقيدة المسيحية فتصدع من بنيانها ما تصدع ... وهذا الانشقاق لايظهر إلا بعد أن أعلن الوفاق بين المسيحية والدولة الرومانية ، وكان أهم قضية انشق عليها المنشقون :

قضية عيسى ابن مريم هل هو الله ؟ أم نديه ؟ .. هل هو بشر ؟ .. أو كلمته ؟ . وماهى علاقة الناسوت باللاهوت ؟ كل هذه الاستفهامات شكلت قضايا خطيرة فى العقيدة المسيحية وتأثرت المناقشات حولها بالفلسفة اليونانية وانقسمت المسيحية بهذه انقسامات جوهرية - فمثلا :

هناك طائفة مسيحية تعتقد فى المسيح أنه ابن الله ويشكل مع أمه والأب ثالوثا مقدسا ينتهى فى النهاية إلى صورة توحيدية .

هنا يتساءل العقل : متى كانت أثلاث أو أضلاع المثلث أو الثلاثة تساوى ضلعاً واحداً ؟ لاشك أن هذا مناقض للعقل بالدرجة الأولى ويناقض الدين بصورة أساسية .

على كل حال انتهت المسيحية إلى ما انتهت إليه إلى عقيدتين أساسيتين متناقضتين :

١ - الأرثوذكس : وهى الكنيسة الشرقية .

٢ - الكاثوليك : وهى الكنيسة المسيحية الغربية .

مع احترامنا للطوائف الأخرى .

إلى أن جاء الإسلام وعصف بالدولة الرومانية فانكمشت داخل حدودها الرومانية الغربية ورجع الشرق إلى دولة الإسلام واستطاعت المسيحية أن تنتشر فى الغرب ، غير أن المسيحية وقد انكمشت مع الدولة الرومانية قد حملت بصماتها عليها .

فأصبح أحبارها من حيث الوضع الاجتماعى أعضاء فى الدرجة الأولى فى الهيئة الاجتماعية ، وبالرغم من أن المسيحية دين زهد وتقشف تتوخى تربية الجانب الأخلاقى فى الإنسان تغيرت فى نزعتها الزهدية حينما اتصلت بالدولة الرومانية ، فأصبح لها كنيسة مؤسسة على الفن الرومانى والبيزنطى موشاة بالفن الرفيع ، أى بدأت الكنيسة تدخل فى تيار التطور الحضارى

المعمادى فلم تعد كما كانت قبل بيتاً للزهد والزهاد ، كما شمل التغيير آباء الكنيسة الذين أصبحوا بدورهم يؤثرون الحياة الاجتماعية على حياة التنسك والاعتزال وأصبحوا فى العرف الاجتماعى طبقة فى أعلى طبقات الهيئة الاجتماعية لها دخلها المادى ولها طقوسها التى تحفظ عليها ألفها التقليدى وعرفها الاجتماعى ، وأصبح كهانها ينتظمون سلسلة وراثية. ومن وجهة النظر الاجتماعية والتاريخية يتربع فى أعلاه طبقتان : الفرسان ورجال الدين . من هنا بدأ صراع اجتماعى يحكم طبقة الكنيسة لتدافع به عن وضع طبقتها لا عن دينها ، وبدأوا يستغلون الدين ليساندوا به طبقتهم ، وأخذوا يسنون التشريعات التى تحفظ عليهم وضعهم الاجتماعى والتى تصرف الناس عن دينهم وتولد فيهم نزعة ثورية ضده ، فنلاحظ أنهم أدخلوا فى التشريعات المسيحية ما ليس منها فشرعوا :

صكوك الغفران ، وحرموا تداول الكتاب المقدس ، وحرموا العقل من وظيفته الفكرية ، ومبدأ اعتراف ذى الخطيئة لكاهن الكنيسة ، مثل هذه التشريعات التى سنتها الكنيسة إذا أردنا أن نلتمس منها شيئاً يعرب عن المنهج الأخلاقى ، فإنه لايتأتى لنا أن نفهم سوى أن هذه التشريعات أثارت الغضب على الكنيسة ، لأنهم جندوا الدين لخدمة أغراضهم الاجتماعية وحولوه من دين تقوى إلى مبادىء تخدم الجشع فى الإنسان ، فليس غريباً أن يظهر نوع من الأساقفة الدنيويين « السياسيين » الذين لم يكرسوا أنفسهم لرعاية رعيتهم بقدر ما وجهوا عنايتهم إلى المناورات الدبلوماسية فى البلاط الإمبراطورى .

فصكوك الغفران تفيد جانب الثراء للطبقة الدينية حيث يبيعون فى الجنة والنار أسهما بينما هى فى الدين المسيحى وفى غيره ثمرة للعمل الإنسانى وفضل من الله .

كذلك حق الاعترف القديس فيه كشف لعورات المجتمع مع أن مبدأ التوبة لايستوجب إلا الإخلاص لله . كذلك حظرهم تداول الكتاب المقدس

فيه بلاشك مجانبة تامة لدعوة الدين المسيحى من حيث هو دين ، لأنه يربط الإنسان بالله من خلال الكتاب المقدس ، فكيف يرتبط الإنسان بالله من خلال الكتاب المقدس وهو محظور عليه أن يقرأ فيه إلا عن طريق آباء الكنيسة ؟ إنه لتناقض شنيع .

كذلك حظرهم على العقل الإنسانى أن يباشر وظيفته الفكرية فيه مجانبة لرسالة السماء وتشويه ومسخ للكنيسة .

فكل ماشرعه آباء الكنيسة من تشريعات إصلاحية كانت فاسدة وأرغمت الإنسان الأوربى على أن يسحب ثقته من الكنيسة ومن آبائها ، وبذلك عرضت الكنيسة نفسها للثورة والعنف حين أراد الإنسان الأوربى أن يثور ولقد ثار على الكنيسة وأوضاعها ، ومن الملاحظ أن أول من ثار على الكنيسة قديس ألمانى « مارتن لوثر » أى أن الدين المسيحى ذاته ثار على رجال الدين وبدأ يسحب ثقته من الكنيسة ومن آبائها وكانت النتيجة :

١ – رفض الكنيسة وآبائها .

٢ – إحلال الاتجاهات الإنسانية محلها معتمدة على العقل الإنسانى وتراثه.

ثم أعقبها اتجاهات فى النقد متعمقة تارة ومتهكمة تارة أخرى ، ثم ظهر تيار نقد يتصف بالموضوعية والمنهج قام به أساتذة الجامعات فى هذا الوقت بعد ما رأوا تطرفا فى الثورات ضد المسيحية فتوسط الدكاترة حفاظا على الولاء القومى بين كتابات رافضة للكنيسة ورجالها وكتابات تتصف بالعنادية ضد أى معنى سام ينتمى إلى الدين .

وكان المنهج المطروح للحد من الثورة على الكنيسة هو إيجاد جو تنمو فيه الروح الأخلاقية فاتجه الدكاترة رجال الجامعة إلى وضع تمييزات مهمة بين الدين ورجل الدين ، بين النص المقدس والنص الإنسانى ؛ وكانت هذه التوجيهات ترى أن رجل الدين ليس معصوما حين يخطىء ، وأن الإنسان يتبع الله دون

وساطة آباء الكنيسة ، ورفض الكنيسة ورجل الدين لا يعنى رفض الدين وكتابه المقدس ، كذلك رفض الدين الكنسى لا يعنى رفض الله . واتباع الدين المسيحى إن أراد الأوربى أن يتبعه لا يلغى العقل الإنسانى ، واتباع الكتاب المقدس لا يعنى إلغاء التراث الإنسانى .

هذه التوجيهات كان لها أثرها النفسى على الإنسان الأوربى من حيث أنها خففت حيرته وألقت بالسكينة فى قلب الذين وقفوا حيارى وسط الطريق بين المتطرفين الذين يلعنون الكنيسة وبين آباء الكنيسة الذين شوهوها وبين هؤلاء وهؤلاء ، وقف الذين يطلبون المعرفة ويودون الركون إلى السكينة ويتساءلون هل الله موجود أو غير موجود ؟ هل الله حقيقة أو غير حقيقة ؟ هل الأفكار الدينية ضرورية أو غير ضرورية ؟ ....

استفهامات فلسفية وقفت أمام الذين يودون المعرفة ويطلبون السكينة دون أن يجدوا إجابات حاسمة عليها ؛ لأن الذين يقدرون على الإجابة فى صراع مع طاغوت الكنيسة نفسها وهى المعتقد فيها أنها موئل آمن من تلك الشكوك فسحبوا الثقة منها ، لذلك كان القلق قاسياً والتوتر أليما لجاءت ورقة إصلاح الجامعة ضرورية للذين يطلبون الله والجو الفكرى يشككهم فيه .

ووضعت حداً لطبقة ادعت القوامة على التراث الثقافى ونحلت لنفسها صفة قضائية خولت لها أن تحكم ظلماً وبهتانا على الذين أرادوا أن يطلعوا على الكتاب المقدس أو يطلعوا فيه على الفلسفة اليونانية أو أى فكر ثقافى يريد العقل الإنسانى أن يزود منه إذ كانت الطبقة الدينية ترى فى ذلك شططاً فأصدروا أحكاما تأديبية بلغت من الشناعة حداً يجافى معنى الدين ومعنى رحمة السماء .

ثانياً : الإسلام والإصلاح الدينى

من منطلق الضرورة التى يحتمها علينا اللقاء الفكرى بين الحضارات ..
نعود بالذاكرة إلى الوراء قليلا لنقف أمام سؤال :

هل الإسلام له صلة بحركة الإصلاح المسيحى فى أوربا . . وما هى الروافد التى حملت الثقافة الإسلامية إليها ؟

أود قبل الإجابة المباشرة أن أرسم خطا بيانيا يشير إلى علاقة الإسلام بالمسيحية من خلال كتب التاريخ الإسلامى وروايات المؤرخين حتى تأتى الإجابة من واقع التاريخ ، وهى كما تحكى كتب التاريخ لدى الإسلاميين أن أول بشارة تلقاها الرسول قبل رسالته كانت من قبل « حبر مسيحى » وذلك عندما كان شابا وكان عضواً فى ركب أبى طالب التجارى . تقول الرواية : إن الراهب المسيحى لما رأى علامات النبوة بادية على هذا الشاب نبه أبا طالب قائلا له : إن بينكم شابا سوف يكون نبى هذه الأمة .

الرواية كلها تفيدنا من غير شك أن رجالا من المسيحيين كانوا أول المبشرين لمستقبل الرسول ورسالته وتكررت هذه الرواية بعد (بحيرى الراهب) مع (نسطورا) ثم صدقت البشارات عندما أتاه الوحى .

كذلك عندما وافاه الوحى . وخرج من غاره خائفاً صحبته (خديجة) أم المؤمنين زوجه إلى حبر مسيحى أو يهودى هو « ورقة بن نوفل » كان قد تنصر فقال له مبشراً :

بعد ما سمع منه ما حصل : إنك بنى هذه الأمة وما نزل عليك إنما هو الناموس الذى أنزل على موسى :

فالمسيحية الأولى وقديسوها كانوا المبشرين للرسول قبل بعثته وتلك أولى علاقات المسيحية بالرسول .

فاذا تعدينا المرحلة الشخصية للرسول إلى صميم دعوته نجد أنه أوصى المهاجرين الأول بالذهاب إلى الحبشة لأن زعيمها « النجاشى » وهو مسيحى متعاطف مع المسلمين وأصبح بتعاطفه ملجأهم . وتحكى كتب التاريخ الإسلامى أن هجرة المسلمين تعددت إلى الحبشة كذلك فى مرحلة سفارة الرسول حين أرسل سفراء بكتبه تمهيداً لنشر دعوته نرى أن من الذين قدروا كتابه غير « النجاشى » المقوقس عظيم القبط بمصر وأعرب عن تقديره بأن أرسل إليه أم المؤمنين (مارية القبطية) أم ولده إبراهيم .

من كل ذلك نخلص أن علاقة المسيحية الأولى بالرسول وبالإسلام كانت علاقة أساسها الإقرار برسالته .

وظل الحال كذلك إلى أن التقى الإسلام مع المسيحية كدولة ـ أى دولة الروم ، واستطاع الإسلام أن ينتصر على الدولة الرومانية ويهز من كيانها .

من هنا بدأ التغيير فى العلاقات بين الإسلام والمسيحية الغربية يميل نحو العداوة أو الصراع .

من يومها تغير مجرى العلاقات لأن الإسلام أزال الدولة الرومانية وأزال أطماعها وهدم إمبراطوريتها وأصبح الجنس الرومانى بما له من سؤدد فى الدرجة الثانية بعد العربى ، ذلك الفاتح الجديد ، هذا بالإضافة إلى نظرية الإسلام الاجتماعية التى تساوى بين الأمم المفتوحة مع إلغاء الفوارق الطبقية وألقابها .

من هنا تحولت المسيحية كدولة مغلوبة إلى دولة مناهضة للإسلام ودولته. ومن المرغوب فيه والجدير بالاعتبار أن علينا أن نعرف ونحن بصدد وضع خط يشير إلى تطور العداء المسيحى تجاه الإسلام علينا بصدد ذلك أن نبين أن المسيحية تنقسم إلى قسمين :

مسيحية شرقية ـ مسيحية غربية .

إن المسيحية ما كادت للإسلام بل كما يذكر التاريخ أنها وقفت مع صلاح الدين لمناصرته أيام الغزو الصليبي المسلح للإسلام فى دياره .

بذلك أصبح العداء المتوقع من المسيحية سوف تأتى ريحه العاصفة من الغرب الوريث الشرعى للدولة الرومانية بأشكال مختلفة فالمسيحية قد بيتت العداء للإسلام فألقت نظرية الجنس لترده بها حقدها القديم على الإسلام عندما غلبها وأجبرها على المساواة بينها وبين الشعوب المظلومة لامن قبل أن تدعى إلى الإسلام أوتدفع له الجزية إن أبت الدخول فيه . فمن يومها تحولت بالعداء إلى عداء جنس لجنس وكان ذلك من مغالطاتها العلمية .

وبعد أن أزال الإسلام دولة الروم وانتشرت فتوحاته على مستوى القارات الثلاث ودخل أسبانيا ووقف على أبواب جنوة ، كانت هذه الفتوحات بمثابة غصة فى حلوق سادة الأمس من الرومان ، ومن يومها أيضا وقد بيتوا له العداء باسم التبشير المسيحى وأخذوا يحكمون الخطط وكان لها خطان بارزان :

١ — الخط الحربى المسلح .

٢ — الخط الثقافى ومدارسه .

وكان أول نصر لهم على دولة الإسلام هو استقلالهم بالأندلس .

من خلال تلك التجربة أخذوا يعدون خططاً حربية جديدة علهم يزعزعون من كيان الدولة الإسلامية ، ومما هو جدير بالذكر أنه عندما انكمشت رقعة دول الإسلام بسبب استقلال الأندلس . توسع الإسلام بمده الثقافى داخل أوروبا نفسها وذلك كان حين انتقلت المدارس الثقافية التى كانت فى الأندلس نحو أوروبا ومعها نفائس الكتب ولاسيما القرآن وأصبح هذا التراث الحافل بالفكر الإسلامى وفلسفته القاعدة العلمية لمدرسة « الدومينيكا » وكبيرها « ريموند الطليطى » .

لاشك أن هناك روافد كثيرة انتشرت بانتشار الأمة الإسلامية على هذه الأرض ، لكننا سوف نؤكد على رافدين أساسيين لهما من المستندات التاريخية ما يجعل رفضهما من قبيل الجدل المغالط .

الرافد الأول : الفردوس المفقود :

الفردوس المفقود يعنى (أسبانيا) وكان ذلك حين انفصلت عن الخلافة الإسلامية واستولى عليها مسيحيو أسبانيا ، وكان هذا المثال مثالا نادراً فى التاريخ يجذب إليه المؤرخ وفى نفس الوقت يجبره إن أراد أن يفهم ظاهرة الفردوس المفقود على أن يقف أمام سؤال : كيف تنفصل أسبانيا ؟ بعد تاريخ طويل زهت به وهى حاضرة من حواضر العالم الإسلامى وكانت مبشرة بالثقافة الإسلامية ولها ريادتها فى الحركة الفكرية أو الحياة الفكرية وأنجبت كثيراً من العلماء والمفكرين فكان فيها شراح الفلسفة الإسلامية : كابن رشد وابن طفيل وابن باجه .... وهؤلاء هم الذين حملوا عبء التراث الإغريقى ، وعبء التراث الإسكندرى ، وعبء التراث الإسلامى ، واستطاعوا وفق هذه الرسالة أن يزاوجوا بين هذه الثقافات المختلفة شكلا ومضمونا فضلا عن علماء تخصصوا داخل الدائرة الإسلامية تفسيراً وحديثاً وتشريعاً وتاريخاً .

الحق أنها كانت حقلا ثقافيا خصباً للثقافة الإسلامية وغيرها ، فعندما وقع الاضطهاد المسيحى رحل أعلام منها إلى أوروبا معهم المخطوطات العربية فى زورق وسط بركة من الدماء إلى أوروبا ، هذا هو الرافد الأول .

الرافد الثانى :

الغزو الصليبى لديار الشرق حين قامت أوروبا بغزو مسلح للشرق لتكافح الإسلام ، وسميت هذه بالحملات الصليبية ، وتعنى كلمة الصليب « الحرب المقدسة » .

على أى حال سوف لاناقش ثمار هذه الغارات وهل كانت مقدسة أولا ، وهل كانت تبغى التبشير بالمسيحية أم لا ؟ .... سوف ندع كل ذلك لشىء واحد وهو الإسلام .

من البداهة بمكان أن الإسلام منذ أن جاء وهو يعترف بالأديان السماوية كلها وبالمسيحية وعرض اللقاء طمعاً منه فى نبذ التعصب : قال تعالى : « قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء ... إلخ » فغزو المسيحية لديار الإسلام لم يكن غزواً مقدساً إنما كان طمعاً منه فى لبن الشرق وعسله وكيف يبشر بالمسيحية فى الشرق وهى دين شرقى ؟ .

على أى حال مرة ثانيـــة لن نطيل الوقوف أمام مطلب واحد وهو : التركيز على الآثار التى أثرت فى أوروبا ـ فإن الحملة الصليبية حين فشلت فى مهمتها الحربية واستطاع صلاح الدين أن يأسر لويس الرابع عشر ويدعه فى سجن المنصورة ورجعت بعارها وتعلمت درساً قاسياً عليها استطاعوا أن يعوا هذا الدرس وكان من أهمه :

١ ـ أن محاولة منازلة الشرق حربيا غير موفقة ولكن عليهم إعداد خطط .

٢ ـ كذلك وجدوا وهم يسحبون فلولهم حيارى نادمين أن الإسلام غير المسيحية فليس طبقة إكليركية (طبقة مقدسة) تتميز بطقوس دينية ولها حق مقدس .

٣ ـ كذلك وجدوا أن المسيحية الشرقية لم تتعاطف مع المسيحية الغربية وإنما وقفت بجانب صلاح الدين ، وليس هناك أدل على سماحة الإسلام أكثر من شهادة الواقع لقد عايش الأديان وعاش المسيحيون فى دياره وديارهم من غير اضطهاد .

كل تلك بلاشك بصمات ظاهرة الأثر على الثورة الإصلاحية الدينية التى قامت بها أوروبا على الكنيسة .

من خلال هذين الرافدين سلكت الثقافة الإسلامية سبيلها إلى أوروبا فأسهمت فى صياغة الورقة الإصلاحية للكنيسة الرومانية .

وسوف نتعمق الأثر الفعال على الصيغة الإصلاحية بعد روافد الثقافة الإسلامية . . . وإذن فما هو المقصود بالأثر الإسلامى فى تقويم حركة الإصلاح الدينى فى أوروبا ؟.

عرضنا فيما سبق بعض الروافد التى أمكن للثقافة الإسلامية أن تسير فيها فرأينا غزواً ثقافيا من الأندلس إلى أوروبا ، ورأينا الغزو الصليبى وقد دام قرابة قرن كيف جاء إلى الشرق الإسلامى واستطاع أن يحمل معه بعض الآثار الإسلامية كما اطلع على بعض العادات والتقاليد وربما حمل معه القرآن .

كما أنه أقيمت جسور صالحة تحمل حركة اللقاء الفكرى والحضارى لأن الحركة الإصلاحيـــة التى عرضنا بعضها يمكن أن يرجع إلى النهضة العقلية وبعضها يرجع إلى أثر من آثار الدين الإسلامى . فمثلا : الإسلام ليس فيه طبقة إكليركية ، بمعنى ليس فيه طبقة لاهوتية تتميز بشعائر خاصة من الناحية الدينية ليس لها كالها من الخازن الدينى .

الإسلام ليس فيه ـ مثلا ـ هذه الطبقة ...

نلاحظ أن أول شىء ثارت عليه أوروبا ثارت على الطبقة الكهنوتية .

أليس ذلك يعتبر أثراً من آثار الثقافة الإسلامية على المنهج الإصلاحى؟ كذلك صكوك الغفران ومبدأ الاعتراف قبل التوبة ، كل هذه الأشياء هاجمها الإسلام وحقق العلاقة الطبيعية بين الله والإنسان على مبدأ خاص من مبادئه هو : التقوى وفق قوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ألا يعتبر هذا من الآثار الواضحة للإسلام على المنهج الإصلاحى من حيث الدعوة إلى احترامه العقل وأنه غير معطل بالوحى وله دوره، وهو الدور التفسيرى للوحى الإلهى وله مسئوليته الفكرية التى أرشد الدين الإسلامى إليها فى غير مجال الوحى ؟ أليس ذلك يعتبر أثراً من آثار الثقافة الإسلامية على المنهج الإصلاحى ؟ بلا شك هذه المعالم توضح لنا أن الثقافة الإسلامية لابد أنها دخلت هذه الديار الأوروبية وأحدثت تغيراتها بشكل فعال .

لكننا نتساءل عن الدور الحقيقى للثقافة الإسلامية الذى يجب أن تظهره داخل حركة النهضة الأوروبية، والسؤال : إذا كانت الثقافة الإسلامية لها هذا الدور الفعال فلماذا انطفأت الحركة المناهضة للإلحاد ؟ .

إنه عندما دخلت الثقافة الإسلامية فى هذه الديار وترجمها المترجمون كان قد حصل انفصام بين الفكر وبين الدين ... بمعنى أنهم أخذوا بعض الأفكار التى راقت لهم وفصلوها عن الإسلام كدين ، ثم أخذوا يتوهمون أن الدين الإسلامى هو والمسيحية سواء أو أقل منها وذلك أمر طبيعى ومتوقع بعصبية موروثة .

فمن هنا كان الموقف الأوروبى التاريخى موقفاً غير عادل أو غير منصف للإسلام والمسلمين ... لذلك لا نستبعد كيدهم للإسلام مع الاهتمام بتلك الأفكار التى تؤرقهم فأوقعوا فصلا بين الإسلام وفكره ، فأخذوا من فكره مايروق لعقولهم ثم انقلبوا فى حملة شرسة ضده - هذا من وجهة النظر العامة للأثر الإسلامى على ورقة الإصلاح الدينى .

أما من وجهة النظر الخاصة ، فإنه قد بينت كتب كثيرة من كتابات « ديلاس أوليرى » أن بعضاً من المؤلفات الإسلامية قد ترجم فى عهد « فريدريك الأكبر » وبينت الدراسات الحديثة أثر فلسفة ابن سينا فى فلسفة القرون الوسطى .

كذلك على وجه التحديد وكما ذكر الدكتور / محمود قاسم فى كتابه « العقل والنفس عند فلاسفة الإغريق والمسلمين » أن أدلة وجود الله كما ذكرها « توماس الإكفينى » تكاد تكون هى الأدلة التى ذكرها « ابن رشد » .

كذلك أضاف « أرنست رينان » إلى المكتبة كتابا حقق به أثراً من آثار الفكر الإسلامى فى كتاب سماه « ابن رشد والرشدية » .

كذلك هناك من الكتب التى ألقت بياناً على قيمة هذا الأثر ، منها « فضل العرب على أوروبا » وفيها : « شمس الله على الأرض » للسيد سيجريد هوتكه .

وهناك الكثير من الكتب التى تعقبت هذه الغاية وأبرزتها فى وضوح تام إلى حد شهرتها .

هذه الثقافة الإسلامية التى غزت أوروبا كان لها أثرها الفكرى فى حركة علمية نشطة داخل أوروبا ورجال الكنيسة فى العصر الوسيط . وأصبحنا نرى أثرها فى اعترافات القديس أغسطين وفى شك « ديكارت » وفى أدلة وجود الله التى صاغها « توماس الإكوينى » . حملت كتابات فكرية بيان هذا الأثر للفكر الإسلامى على أوروبا وكان من نتائجها حركة الإصلاح التى ظهرت على يد « مارتن لوثر » و « كالفن » وترجع بعض مناهجها إلى التراث الإسلامى ولقد كتب الأستاذ الشيخ / أمين الخولى فى الثلاثينات بحثاً صغيراً شارك به فى مؤتمر تاريخ الأديان دعى إليه بعض المستشرقين ، وحين قرأ بحثه ثارت مناقشة بعده استقر رأيهم بعدها على أن بين أسباب الإصلاح الكنسى حركة الإسلام الفكرية التى عبرت من أسبانيا إلى الكنيسة الفرنسية والإيطالية .

وكان نتيجة التوسع الثقافى للإسلام أن الفكر الإسلامى أيقظ الوعى الأوروبى إلى ضرورة مكافحة الإسلام مكافحة حربية .. وفعلا قامت أوروبا

بأول غزو مسلح للإسلام ودولته فى دياره ووصفت هذا الغزو بأنه غزو مقدس ورفعت الصليب شعاراً على ذلك ، ولكن خاب أملهم عندما هزمهم صلاح الدين وشاركه مسيحيو الشرق أى لم تتعاطف المسيحية الشرقية مع المسيحية الغربية .

وكانت هذه الهزيمة درسا مشتملا على جوانب كثيرة منها : أنه ثبت لديهم أن الدولة الإسلامية يمكن أن تستعيد مجدها ويعيد التاريخ معها سيرته الأولى ، وأصبح لديهم أيضا أن منازلتها حربيا غير مجد وإنما عليهم أن يتجهوا إلى التخطيط الفكرى أو ما يعرف فى دوائرهم (بالحرب الباردة) واستطاع الغزو الفكرى أن يحقق بعض الغايات التى فشلت الحرب فى تحقيقها من ذلك :

أحيا النزعات الإقليمية ، والنزعات الأسرية التى ينتمى إلى بعض منها الرسول بينما الإسلام لايعرف الأسرات المقدسة ولكن هذه النغمة أحياها الغزو الفكرى وذلك عندما فتت البقعة الجغرافية لدول الإسلام ، وبذلك أصبح من السهل على أوروبا غزو العرب فى ديارهم غزواً مسلحاً وكانت النتيجة :

١ — أن وضع التيار المعادى فروقا دقيقة تفصل بين الإسلام والمسلمين .

٢ — فتت الدولة الإسلامية إلى دويلات تحكمها قبائل وأسر .

٣ — وضع اختلافا فى أشكال النظم السياسية القائمة فنرى : الجمهورى والملكى والأميرى والمشيخى .

٤ — أعلن عن ضعف الدولة الإسلامية وعلى عدم فعاليتها وأوقعها فى حرج مع المشكلات المعاصرة ـ السياسية والاقتصادية .

٥ — وتصفية المظهر الاستقلالى للعالم الإسلامى وعرفت هذه التصفية

فى المحافل الدولية بتركة الرجل المريض واستلبت منه « فلسطين » ورفع الوطن العربى بين فكى الاستعمار الغربى والشرقى ومازال الرجل مريضا .

وبرغم تنبيه القرآن المخلصين من المصلحين أن يأخذوا حذرهم دائما فإن العرب كانت قد واتتهم الأحلام مع ليل طويل فاستراحوا فيه وقد هدهم نوم عميق .

ا.د.محمد إبراهيم الفيومى
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين - القاهرة